استدعاء شخصية أبي ذر الغفاري في الشعر الأردني المعاصر: دراسة وصفيّة وتحليلية

عماد عبدالوهاب الضمور

كلية عمّان الجامعية للعلوم المالية والإدارية - جامعة البلقاء التطبيقية

عمان - الأردن

تاريخ الاستلام: 2016-11-30 **تاريخ القبول: 2017-01-11**

ملخص البحث:

يعدّ التراث العربي رافداً خصباً لحركة الشعر العربي المعاصر، وواحداً من أهم مكوناته الفكريّة، وأدواته الفنية التي تمنحه قدرة على الكشف والتعبير عن قضايا الواقع، وما يحياه الشاعر من أزمة حضاريّة معاصرة.

لعلّ استدعاء الشعر للشخصية التراثية إحدى أهم الوسائل الأساسية التي يحاول بها الشاعر المعاصر الإسهام في تغيير واقعه وذلك بتوظيف ما تكتنزه الشخصية التراثية من طاقات وتجليات.

تحاول هذه الدراسة بالاستناد إلى المنهج التحليلي الوقوف على مظاهر استدعاء الشعراء الأردنيين لشخصية الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري، بعدما وجدوا فيها أداة فنية ناجحة؛ لتصوير مرارة الواقع الذي تحياه الأمة من خنوع واستكانة. إذ ظهر الانصهار بهذه الشخصية التراثية مهماً لإكساب تجربة الشعراء طابعاً إنسانيًّا خصباً، يتجاوز حدود الزمان والمكان، فضلاً عمّا تكتسبه التجربة المعاصرة من أصالة نتيجة للاتّصال بتراث الأمة .

إنّ استدعاء شخصية أبي ذر الغفاري في نص إبداعي معاصر يدل على أنّها رمز حيّ على الدوام، مفعم بمعاناة سياسية واجتماعية معاصرة، قابل للتعايش القائم على أسس العدل والمساواة، ورفض الظلم، والاضطهاد.

الكلمات الدالة: أبو ذر الغفاري، الشعر الأردني المعاصر، استدعاء.

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 252 10/1/18 12:53 PM

مقدمة:

سعى الشاعر العربي المعاصر إلى توثيق صلته بالتراث بعدما وجد فيه ما يعينه على بناء نصه المعاصر، والتعبير عن رؤيته الفكريّة، « فقد ظل الشعر العربي مرتبطاً بأصوله القديمة مع كلّ ما حدث فيه من محاولات تجديد ابتداءً من تلك التي سعت إلى التجديد في أغراضه وأساليبه، وحتى محاولات تجديد الشكل وتطوره» (حداد، 1986، ص30).

يمد التراث الشاعر المعاصر بروح المقاومة ويستنهض الهمم للخروج من المأزق الذي يحياه؛ لذلك فإنّ التراث وسيلة حماية للشاعر من الانكسار، وللشخصية التراثية من الذوبان. فضلاً عن كونه معيناً لا ينضب، وحالة من الخلود لا تتوقف عند زمن بعينه، تكتسب قداسة في النفوس ولصوقاً بوجدان الأمة؛ إذ إنّ الشاعر باستدعائه الأصوات التراثية «يكون قد أضفى على تجربته الشعريّة نوعاً من الأصالة الفنية عن طريق إكسابها هذا البعد التاريخي الحضاري، وأكسبها في نفس الوقت لوناً من الكلية والشمول بحيث تتخطى حاجز الزمن فيمتزج في إطارها الماضي والحاضر في وحدة شاملة» (زايد، 1978، ص19).

إنّ استدعاء الشخصيات التراثية يعدّ من أبرز التقنيات التي وظفها الشعراء في قصائدهم؛ لتمنحها حمولة فكرية، ووجدانية لا تلبث أن تنتقل عدواها للمتلقي؛ لأن الشخصيات المستدعاة ـ غالباً ـ ما تحتفظ في الذهن والوجدان بإيحاءات دلالية وعاطفية تفرض على المتلقي نوعاً من التماهي معها.

ولمّا كانت الأمة العربية تمرّ هذه الأيام بمرحلة صعبة من قهر سياسي واجتماعي، وتراجع حضاري، فإن الشعراء المعاصرين وجدوا في الشخصيات التراثية ضالتهم التي يوجهون من خلالها الإدانة لواقع منكسر ووجدان مخذول، يستترون وراءها بعيداً عن قمع السلطة، أو محاولتها إخماد أصواتهم، فضلاً عن أن لجوء الشاعر إلى هذا الاستدعاء التراثي عمّق من قدرتهم على ترسيخ خلجات حاجاتهم النفسيّة وآلامهم وهمومهم، ذلك أن «التراث واحد من تلك الجذور القوية التي ترتكز عليها كلّ أمة في مواجهة أية رياح تحاول أن تعصف بوجودها القومي، فتمنحها إحساساً قويًّا بشخصيتها القومية، ويقيناً راسخاً بأصالتها، وعراقتها» (زايد، 1978، ص49).

وهذا ينسجم مع ما يكتنزه التراث من موروث فكري خصب، جعله يتغلغل في الخطاب العربي الشعري « ويشير إلى ما هو مشترك بين العرب، أي التركة الفكرية والروحية التي تجمع بينهم لتجعل منهم جميعاً خلفاً لسلف» (الجابري، 1990، ص23).

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 253 10/1/18 12:53 PM

يكشف عزالدين إسماعيل عن طبيعة علاقة الشاعر المعاصر بالتراث فيرى أنها « علاقة استيعاب، وتفهم وإدراك واعٍ للمعنى الإنساني، والتاريخي للتراث، وليست بحال من الأحوال علاقة تأثر صرف، ومن خلال هذه النظرة كان استخراج الشاعر المعاصر للمواقف التي لها صفة الديمومة في هذا التراث سواء أكانت هذه الصفة لازمة للموقف القديم أم مضافة من قبل الشاعر» (إسماعيل، 1994، ص 27).

فهي علاقة تنبني على الاختيار الواعي بما يخدم رؤيته الفكرية، وذلك في سيرورة فاعلة، تنبثق منها الرؤى، وتنتظم من خلالها الكلمات في نسيج كليّ متين، تصبح معه الشخصية التراثية أكثر خصوبة وشمولاً في النص الشعري المعاصر، يودعها الشاعر أدق تفاصيل تجربته، ويمنحها حرية التعبير عن عمق الفجيعة، ومرارة الانهزام.

إذ يحفل الشعر العربي الحديث باستلهام واضح للشخصية التراثية، كما في شعر عبدالوهاب البياتي، وأمل دنقل، وأدونيس، وعزّ الدّين المناصرة، وغيرهم من الشعراء .

يحتفظ أبو ذر الغفاري لنفسه في التراث الإسلامي بملامح تراثية متعددة، يصلح كلّ منها للتوظيف في تجربة معاصرة، أو أن تعكس بُعداً من هذه التجربة؛ فهو صحابي جليل، سجّل له التاريخ ثباته على مبادئه، وعدم تملقه للسلطة، بل إنّه طالب بعدالة اجتماعية منذ وقت مبكر من تاريخ الدولة الإسلامية، لذلك فإن الشعراء في ثوراتهم الاجتماعية استدعوا هذه الشخصية بمخزونها الفكري العميق.

وبذلك يأخذ أبو ذر الغفاري ملمح الثائر الرافض للتسلّط والجبروت، فأصبح رمزاً لكلّ ثائر ومطالب بالعدالة الاجتماعية، يودعها الشاعر المعاصر أدق تفاصيل تجربته، ويمنحها حرية التعبير عن عمق الفجيعة المعاصرة.

إذ وجد الشاعر المعاصر أن خير ما يُتوسّل به إلى وجدان المتلقي هو نقل تجربة مشابهة لتجربته المعاصرة، وذلك لشعوره بفقدان العدل، واختلال الموازين الاجتماعية والسياسية، فكان استدعاء شخصية الصحابي أبي ذر الغفاري تعبيراً عن أزمة حادة يحياها الشاعر العربي المعاصر، ويحاول من خلال هذه الشخصية التراثية التخفيف من حدة الضغوط النفسيّة التي يواجهها.

إنّ توظيف أسماء الأعلام التاريخية، والتراثية يتمتع بحساسية خاصة؛ لأن هذه الأسماء تحمل بطبيعتها « تداعيات معقدة تربطها بقصص تاريخية أو أسطورية، وتشير قليلاً أو كثيراً إلى أبطال وأماكن تنتمي إلى ثقافات متباعدة في المكان والزمان» (مفتاح، 1986، ص65).

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 254 10/1/18 12:53 PM

يجعل خالد الكركي من شخصية أبي ذر الغفاري رمزاً للثائر الباحث عن العدالة، ينظر إليه الشعراء في قصائدهم « باعتباره المطارد في سبيل موقفه الذي يدعو إلى عدالة بين الجميع، ويرفع الصوت عالياً محتجاً، وهو يرى النقاء الثوري زمن النبي وخليفته: الصديق والفاروق، يتحوّل إلى ترف وابتعاد عن طهر الثورة الأول» (الكركي، 1989، ص196).

لقد استدعى بعض الشعراء الأردنيين شخصية أبي ذر الغفاري في قصائد شعريّة ذات رؤية فكرية، وتوهج وجداني، بما تمتع من تراث خصب، وتنفتح على موروث عقائدي ضمن نسق تعالقي، يسمح بتداخل النصوص، والشخصية التراثية، مثلما سمح بتداخل الأنساق الدلالية الباعثة للمعنى. وقد تجلّى استدعاء هذه الشخصية التراثية الخصبة في الشعر الأردني المعاصر من خلال المظاهر الآتية:

1 ـ الرمز التراثي 2 ـ الشخصية والموقف 3 ـ المُخلِص والثائر 4 ـ الإدانة للواقع.

1 ـ الرمز التراثي

اختلفت الآراء حول تحديد واضح للتراث بصورة دقيقة، ممّا جعل دلالاته متعددة «فهو تارة الماضي بكلّ يسر، وتارة القصيدة الدينية نفسها، وتارة الإسلام برمته، عقيدته وحضارته، وتارة التاريخ بكلّ أبعاده ووجوهه»(جدعان، 1985، ص16).

إذ تبدو أهمية التراث بوصفه كنزاً معرفيًّا تدّخره الأمة في مسيرتها الحضارية، فهو «موجّه للسلوك، وذخيرة قوميّة يمكن اكتشافها واستغلالها واستثمارها من أجل بناء الإنسان، وعلاقته بالأرض» (حنفي، 1981، ص11).

إنّ توظيف الرموز التراثية من الظواهر الشائعة في الشعر العربي الحديث، بوصفها إحدى أدوات التعبير المهمة لإبراز التجربة المعاصرة، وكشف أبعادها الفكريّة الخصبة، إذ تختزل هذه الرموز جزءاً كبيراً من ملامح المعاناة المعاصرة، وتُسهم في البوح الشفيف عن مكنونات النفس الإنسانية، ممّا جعل أهم ما يُميّز النص الشعري المعاصر « تقلّص المبنى في القصيدة الجديدة، وانفساح المعنى، وغزارة الإيحاء، وكثافة التعبير»(عيد، 2003، ص9).

لعلّ شخصية أبي ذر الغفاري من الشخصيات الحاضرة في الشعر العربي الحديث؛ لكثافة هذه الشخصية التعبيريّة وقدرتها على نقل معالم واضحة من التجربة المعاصرة، كما في شعر مظفر النواب، وعبد الرزاق عبدالواحد، ومعين بسيسو، وغيرهم من الشعراء العرب الذين نشدوا العدل والمساواة في أشعارهم، وطالبوا بالتحرر من الظلم والفساد، إذ أسهم

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 255 10/1/18 12:53 PM

واقع الشاعر المعاصر في تعميق إحساسه بالمعاناة، وتحفيز رغباته الحبيسة التي ارتدّت إلى أشكال رمزية، ومنابع تراثية مولّدة رموز ضياع نفسي، واغتراب وجداني، أغنت طاقات اللغة في التعبير، وأخرجتها من نبرتها التقليدية إلى طرق وجدان المتلقي بأفكار جديدة.

وأبو ذر الغفاري صحابي جليل، عُرف بتقواه وتقشفه، وثورته على الفقر والظلم الاجتماعي، انتقل في كثير من النصوص الشعريّة من بيئته التراثية؛ ليعبّر عن حالة البؤس والشقاء المعاصرة.

يعدّ موقف صمود أبي ذر الغفاري في مواجهة السلطة من أهم المواقف المستدعاة في القصيدة العربية المعاصرة، وبخاصة « صموده العنيف في مواجهة الخليفة عثمان بن عفان، ومعاوية ابن أبي سفيان، حتى مات منفياً في الرّبذة، ثم إصراره العنيف أيضاً على الوقوف إلى جانب الفقراء، والدعوة إلى توزيع الأموال بالمساواة بين الناس ودعوته إلى خروج الجائعين على السلطان وإشهار سيوفهم في وجهه حين لا يجدون قوتاً لأطفالهم» (الكركي، 1989، ص198).

تبدو تجربة الشاعر نادر هدى غنيّة في استدعائها شخصية أبي ذر الغفاري، فهو في ثلاثيته (حبر العتمة، مزامير الريح، عالم لست فيه) مغرم بالبحث عن الأقنعة، بوصفها رموزاً يلتجئ إليها؛ ليُضفي على صوته نبرة موضوعية، وواقعية تنبض بآلام الحاضر، ومرارته، فهي نبرة لا تعتمد معاداة الواقع، وتعريته بقدر ما تهدف إلى ملامسة الهم الإنساني العام، ومعاناة المضطهدين، وهذا ما كشف عنه في ديوان (مزامير الريح) اللوحة الرابعة (عن أبي ذرٍّ الغفاري) في قصائده: مذكرة إلى أبي ذر الغفاري، ومقامات « شيء ممّا قاله أبو ذر الغفاري « ومزامير» بمثابة البيانات عمّا قاله أبو ذرّ».

ففي قصيدته:(مذكرة مرفوعة إلى أبي ذرّ الغفاري) يكشف العنوان عن علاقة النص بأبي ذرّ الغفاري، ممّا يجعلها تقع في باب النص الغائب، الذي يبوح في غيابه كلّ ألق الماضي، وفضيلته الخالدة، كما في قوله (هدى، 2010، 187):

ليكن معلوماً/ ـ

إنّا نحنُ الشعبُ المتهالكُ نُطوى

تحت سياط القهرْ

ويُسلبُ منا ضوءُ الشمس،

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 256 10/1/18 12:53 PM

وسرُّ البِشْرْ

نُقتلُ، نُعدمُ،

من دمنا يتروّى الرملْ

يُروى صوتاً، صمتاً

أملاً يخبو،

لعلَّ نادر هدى من خلال استحضار هذا الرمز التراثي أراد البوح والإيحاء برؤى الشاعر، وعينه الراصدة المتناصة مع مرجعياتها الفكرية، وذاكرتها التراثية، إذ ارتكز الشاعر في بنائه لوحته الشعريّة على هذه الشخصية المرجعيّة؛ ليقول من خلالها ما لا يُقال، لأن الشعر « بسّط للقدرة اللغوية على إظهار شيء لا يُقال من خلال شيء يُقال » (بلخير، 2010، ص287).

إنّ الواقع الذي شهده أبو ذر الغفاري هو واقع الانفراد والاستئثار بالسلطة، وقمع الحريات في سبيل المحافظة على مكتسباتها. ولأن الشاعر صاحب رؤيا يتّصف بالجرأة والرغبة في الكشف والإمتاع معاً، فإنّه يُثير في نصوصه أحداثاً حافلة بالإشارات الخصبة، كما في قصيدة (العرس) لمحمد القيسي التي تسرد الواقع بإرث الماضي استناداً لخصوبة الرمز التراثي، حيث يقول(القيسي، 1999، ص 283 - 284):

ولكنّ هذا الغَفاريَّ يجمعُ أَضلاعهُ منْ صَحارى البلادْ

مراكبَ جاهزةً للرحيلِ، حقائبَ للقادم المستحيلِ،

ويخرجُ من زمنِ الاضطهادْ

ويعرفُ: صفصافةُ النهرِ لا ترتدي خُوذةً،

والمرابطونَ لا يُمهلونَ. فهم واحداً واحداً يكشفون القناعْ

فالشاعر من خلال الرمز التراثي يسرد ما يمنحه الهاماً دون تقيّد بحرفيّة التاريخ بل بصهر التاريخ، وإخضاعه للرؤيا الشعريّة، فيُكسب التاريخ من فيض أحاسيسه ما يجعله قادراً على إخصاب الواقع.

تبدو محاولة الشعراء التجديد في سرد الذات واضحة، كما في شعر هشام قواسمة، وذلك باستدعاء شخصية أبي ذر الغفاري، فضلاً عن إظهار الرغبة في مواجهة الواقع، ومنحه

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 257 10/1/18 12:53 PM

صفة الصمود، والتخلص من مظاهر الاستكانة والضعف، إذ يُسهم الرمز التراثي في تشكيل بنية اللغة الشعريّة، وإخصابها برؤى الحضور المتجددة، إذ يقول على لسان أبي ذر الغفاري(القواسمة، 2010، ص71):

أحاولُ

يخذلني الصبرُ

كلُّ الرِّفاقِ على بابِ عثمان

شروا ما تبقَّى ..

طعامَ الجياعِ.. العباءاتِ..

أرصفةَ العابرينَ..

الحرائرَ من سوق بغداد

شرونا..

شرونا .. وباعوك في حَفنةٍ من تراب

فالشاعر يحوّر الحدث التاريخي؛ ليبني رؤيته المعاصرة القائمة على إبراز فعل الخيانة والتنكّر للحقائق، ممّا يعكس إمعان الواقع في قمعه وظلمه الذات الحالمة، لذلك جاء استغراق الذات في انفعالاتها، وإبراز تصدّع الواقع ووصوله إلى حالة صداميّة لا يمكن التهادن معها، كما في قوله سارداً بعض الأحداث من يوميات أبي ذر الغفاري(القواسمة، 2010، ص72):

رموا كلَّ أحلامنا

أثقلونا...

وما أسرَجوا الخيلَ والليلَ

لكنَّهم .. يرقصونَ على دمنا

يشربونَ الكؤوسَ على موتنا

يوقدونَ الشُّموعَ على ذلنا

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 258 10/1/18 12:53 PM

ينفثون الرَّمادَ بأعيننا

إنّ الشاعر بروحه الإنسانية أبرز مأسوية الواقع؛ لذلك هو دائم البحث عن الحقيقة؛ ليمنح نفسه مشروعية التحدّث عن الآخرين، فيعلن غضبه ورفضه لما يسود من تناقض وخداع محتفظاً ـ في الوقت نفسه ـ بخصوبة الوجدان، ورهافة الحسّ؛ ليتمكّن من إنتاج معمار فني ذي فاعلية نصيّة، وخصوبة فكرية.

2 ـ الشخصية والموقف

اعتنقت شخصية أبي ذر الغفاري مبدأ ينشد العدل والمساواة، وعاشت من أجله، ودفعت حياتها ثمناً لإيمانها به، تحملت الإيذاء والاضطهاد، ودافعت عنه بقوة؛ لذلك " يعده بعض الباحثين مفكراً اشتراكيًّا استوعب ـ بصفاء ـ اشتراكيّة الإسلام فوقف طوال حياته شامخاً كالطود ضد بذخ الحكام والولاة، وإسرافهم، ووقف منذ نشأة طبقة الأغنياء في المجتمع الإسلامي مصرًّا على أن الناس سواسية كأسنان المشط"(هلال، 2009، ص88).

تميّزت شخصية أبي ذر الغفاري في الشعر العربي بأنها شخصية مرجعيّة، تؤسس لرؤى الشعراء، إذ يستطيع المتلقي من خلالها إدراك أبعادها الفكريّة، فهي ذات كثافة تعبيرية، وارتباط بالبيئة العربية، راسخة في بنيتها الفكرية، منذورة للدفاع عن قيمها النبيلة، ممّا جعلها عنصراً فاعلاً ومؤثراً فيها.

لعلّ استدعاء مثل هذه الشخصيات التراثية أسهم في ظهور ما يُسمى بقصيدة الشخصية التي تعدّ إحدى أهم الأدوات التعبيرية" التي اشتغلت عليها قصيدة الحداثة، إذ يجري التركيز على تفعيل شخصية منتجة تخضع للوصف والتصوير والسرد ..من أجل دعم شعريّة القصيدة وتزويدها بممكنات نصيّة وسيميائية غزيرة تُضاعف من طاقتها على التعبير والتشكيل والتدليل"(عبيد، 2013، ص49).

لذلك يتوسّل الشاعر المعاصر من خلال الشخصية التراثية لإبراز موقفه الفكري، فيستلهم منها السلوك والمبادئ، ويؤسس لقصيدة الرفض التي يتجاوز من خلالها الظلم، والتسلّط، كما في قصيدة(صلاة أبي ذر الغفاري) لعبدالرحيم عمر، حيث يقول متقنعاً بشخصية أبي ذر الغفاري (عمر، 1989، ص187):

في وحدتي وأنا البعيد عن المساجد والصَّلاة

في عزلتي المفروضة النكراء أرفع صوتيه

هيهات يُسمعُ صوتيه

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 259 10/1/18 12:53 PM

يا ربِّ هذا صوت عبدك خائفٌ متألمِّ

فإليك أشكو ما بيه

وإليك أنشرُ ذاتيه

إنّ أبا ذر الغفاري جزء من الشعب المقهور، يتكلم بصوته، فقضيته التي يطرحها الشاعر ليست حالة فردية، بل قضية جمعيّة ومحاكمة مستمرة لصراع خالد، ينشد المساواة، وينبذ الظلم والعدوان، لذلك لم يأل الشاعر جهداً في بث دوال شخصية أبي ذر الغفاري وإشاراتها الفكرية، وإيحاءاتها في كلّ ما هو متاح من إمكانيات الكتابة بطمأنينة ممزوجة بخوف ووجلّ.

لقد عاش أبو ذر غريباً، ومات غريباً قابضاً على جمر الحقيقة رغم قسوة الواقع، فهو ممن ملأ الحق قلبه زاهداً في الحياة؛ لذلك وجد الشعراء في شخصيته "مجالاً تعبيريًّا، وطاقة إيحائيّة ومرفأ يريحون عليه جوانحهم المتعبة من هموم الحياة وقسوة الواقع، واختلال المبادئ والأنظمة، من حالات التمزق التي تعتري الإنسان المعاصر" (هلال، 2009، ص88). .

فنادر هدى ينأى عن التدفق المباشر للذات دون أن يخفي المنظور الذي يحدد موقفه من عصره، وغالباً ما جاء توظيف شخصية أبي ذر الغفاري ملامساً صوت الشاعر، وكاشفاً عن مرارة الواقع، فيتحدث بصوت الأمة إلى درجة يُخيّل لنا أن أبا ذر ليس سوى قناع ينطق الشاعر من خلاله، ممّا يُحدث تجاوباً مباشراً بينهما، يصل بالمتلقي إلى درجة عالية من الشعريّة، والثوريّة الاجتماعية المُعمقة بإرث الماضي، وعدالة ساكنيه.

فنقرأ صوت الشاعر المضمخ بالجراح، والعابق بالأحزان، حيث يقول مخاطباً أبا ذر الغفاري(هدى، 2010، ص192):

ما زلنا باسم الدين نعيش الوأدَ

نمارسُ عاداتِ البغي الأولى

ما زال أبو سفيان على دينهْ

وبلادُ الشرك على الشرك ولم تُفتحْ

ما زلنا باسم الدين نعيش على التاريخ

ونقتاتُ الفَضلاتِ

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 260 10/1/18 12:53 PM

طوائفَ ما زلنا نتحاربُ في الألقاب

وفي الرايات

ما زلنا في عادات الثأر الأولى

لعلّ هذا النمط من التحدث إلى الشخصية التراثية يصعّد من أسلوب الحوار، ويجعله وسيلة لبث الرؤى، وبعث الأفكار المتّقدة، إذ يتخذ الشاعر " من الشخصية هذا الموقف عندما يحسّ بأن الشخصية لا تحمل ملامح تجربته هو الذاتية، وإنما تجسّد بعداً موضوعيًّا من أبعاد تجربة موضوعيّة"(زايد، 1978، ص267).

يستغل سعد الدين شاهين الطاقات التعبيرية والفكريّة لشخصية أبي ذر الغفاري، فيشكّل من خلالها عالمه ونصه، تاركاً للشخصية التراثية مطلق الحرية في التحرّك داخل عباراته؛ ليخلق جوًّا ملائماً لواقعه يحتوي انفعالاته الوجدانية ويُسهم في إنتاج دلالة كلية للنص، كما في قصيدته (أبو ذر يحزم أمتعته للرحيل) التي يبعث من خلالها شخصية أبي ذر الغفاري من جديد، حيث يقول(شاهين، 2010، ص18):

شاهراً من قصب الملح سيفي

كأيِّ نبيٍ يجوع

أهشُّ المآرب عن سُفرةِ الجائعين

وأملأ أمعاءهم بالكلأ

أُنحِّي أبا ذر عن سيفهِ

إن أعاد الكلام القديمَ

وأتخمنا بالشبع

وأجلسُ كالماء...

في قرفصاءِ الأنابيب

حتى يمرّ الهواءُ الثقيل

إن استدعاء شخصية الصحابي أبي ذر الغفاري في نص معاصر يدل على أنها رمز حيّ على الدوام، يقبل التعايش القائم على أسس العدل والمساواة، يرفض الظلم والاضطهاد. إذ

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 261 10/1/18 12:53 PM

انصهرت التجربة التراثية في السياق اللغوي ذي الزمنية المعاصرة، متخليّة عن تداخلاتها التراثية، وعلاقاتها التبادلية؛ لتكوّن دلالة قاهرة للحرية، وسالبة للأوطان، منتجة شخصية تراثية مفعمة بمعاناة اجتماعية معاصرة.

3 ـ المخلص والثائر:

إنّ الرفض في الشعر المعاصر منهج واضح، أرسى دعائمه شعراء الأمة الذين حملوا أمانة الالتزام بقضاياها، ومعاناة المضطهدين من أبنائها، ممّا يؤسس لقصيدة الرفض التي يتجاوز من خلالها الشعراء حالة الظلم والطغيان إلى إشاعة ما ينشدونه من عدل ومساواة.

لعلّ هذا الرفض أداته، ووسيلته الرؤيا؛ لذلك جاء استدعاء الشعراء لشخصية أبي ذر الغفاري في قصائدهم تعبيراً عن حالة البحث عن المخلص الثائر على سلبيات الواقع ومتناقضاته الفكريّة.

وما إن تسوء الأوضاع الاقتصادية، وتتردّى القيم التي تسود المجتمع حتى تبرز الحاجة لشخصية المخلص التي تزداد الحاجة إليها في لحظات التأزم والظلام، ممّا أكسب شخصية أبي ذر الغفاري بعداً إنسانياً واضحاً يطرح سؤال الفكر العميق الباحث عن الخلاص، يصول ويجول في النص الشعري؛ ليبعث الرؤيا من جديد، كما في قول خالد محادين (محادين، 1990، ص175):

لم تصدأ بعد شرايين الجسد الواحد

والشجر الطالع هذا أغصان فوق الزيت

وتحت النار

واللحظة عود ثقاب

واعدني وجه المحبوبة أن يتوّرد حين يتمّ

عناق الشجر اليابس والفقراء

أين يفرّ المتخم حين الجائع يُشهر سيف أبي ذر

ويعالج أعناق الساسة قبل الخبز وقبل الماء؟

إنّ الأمل في الخلاص والنهوض من كبوة الواقع يتردد في القصيدة كلها، متخذاً مسارات مختلفة ظاهرة حيناً وخفية حيناً آخر، إذ جاء توظيف الشاعر للفعل المضارع في النص

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 262 10/1/18 12:53 PM

الشعري استمراراً للأمل الخفي الساري في روح القصيدة كلها رغم ما يبدو فيها من حسرة بالغة، ومرارة مفرطة، فضلاً عمّا تكشفه حركة الفعل المضارع وتواليها من اختزال عميق لمعاناة الأمة وهمومها.

تكشف القراءة الفاحصة للقصائد التي استدعت شخصية أبي ذر الغفاري عن حضور صوت الشاعر بوضوح، وهو صوت له رجع من صوت أبي ذر الغفاري، واختلاط مع أصوات المضطهدين من أبناء أمته، ممّا يستلزم عشق الحرية، والبحث عن أبوابها، وما استدعاء الصوت القديم إلا ترسيخ لصوت الشاعر المعاصر الذي يبكي عصره ويستنهض العزائم، فيختلط صوته بأصوات الجماعة؛ ليرتفع النداء مجسَّدا عمق السؤال في البحث عن المخلص؛ لتحقيق الآمال المرجوة، كما في مذكرة نادر هدى المرفوعة إلى أبي ذر الغفاري (هدى، 2010، ص189):

ما زال أبو ذرٍ

باسمِ القوتِ

يُعلي رايات العصيان

فأين هو الآن،

وفي أيّ البلدان

يا سيِّد، إنّا نلهثُ في مللٍ

وخوابي الحزنِ تركُّلنا

يا سيِّد، إنّ البردَ القارسَ يوئدُ همَّتَنا

يُنسينا البهجةَ والوعدَ

وطيبَ أمانينا

يا سيِّد، إنّ الدربَ

يضلُّ الرَكبَ

ويشتبهُ

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 263 10/1/18 12:53 PM

فوسط هذه اللجة القاتمة، وحلكة الأحزان وجدب التيه، ينادي الشاعر أبا ذر الغفاري، ويلقي بخطابه الفكري عليه؛ بحثاً عن مخرج من أجل إضاءة الطرقات للتائهين، وهذا جعل من شعر نادر هدى شعراً « يرفض صاحبه خلاصه الفردي، فيدعو إلى خلاص جماعي، يبتكر لنا عالماً، ويدفعنا إلى الاصطفاف خلف مُخلّص قد يأتي ولا يأتي، شعر يمكن أن نعدّه بديلاً أو رديفاً لآمالنا وأحلامنا»(نهر، 2013، ص46).

لقد أحسن نادر هدى في أن يجعل من شخصية أبي ذر الغفاري رمزاً متعاليًّا في السمو الإنساني العابر لحدود المكان والزمان، والباعث على الحلم والثورة (قطبي، 2014، ص 156 - 157). لذلك حمل شعره صوت الأمة التي أراد لها الشاعر النهوض، وإعلان الثورة على الظلم، حيث يقول مخاطباً أبا ذر الغفاري (هدى، 2010، ص 191 - 192).

فإليك الحالُ مزاميراً

عُدْ - أرجوك - ولا تنأى

فالغربة منّا قد وطئتْ

والدمعُ المرُّ يُحَرِّقُنا

عدْ إكراماً

للأطفال وللآيات

عُدْ يا فارسُ

أشعلْ فينا الحرفَ الساكنَ

أشعل فينا اللغةَ المجنونةَ

أشعل فينا معنى الكلماتْ

عُدْ يا فارسُ يغرفُ من عطرِ الأوطان

عُدْ باسم الربِّ، وحررنا من عصرِ الأوثان

لعلّ تميّز اللغة الشعريّة بالحوارية جاء نتيجة لتحولات فنية متعددة شهدتها القصيدة المعاصرة من أهمها استدعاء الشخصيات التراثية الذي نحا بالشعر نحو« الحوارية الممتزجة بالنزعة القصصية والمسرحية حيث تتداخل الأصوات، وتتناثر أمشاج من الحوار، وتقتحم القصيدة شخوص جانبية تضيف أبعاداً مهمة في بنية التشكيل الدرامي

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 264 10/1/18 12:53 PM

للقصيـدة» (عيـد، 2003، ص115).

ولا يلبث هشام قواسمة بعد سلسلة طويلة من الانفعالات إلا أن يجعل أبا ذر الغفاري ينوب عنه في إعلان الثورة على مَنْ نهبوا الحقوق، وأسهموا في انتشار الجوع والتشرّد، حيث يقول (القواسمة، 2010، ص 72 - 73):

نحاول....

يضبطُنا عسسُ الليلِ

نُسجنُ .. نُجلدُ..

تأكلنا دودةُ الأرضِ

أصرخ:

(يا سادتي

لا أجدفُ بالرَّبِّ والشعبِ لا

ولكنَّني ..موجّع .. جائعٌ..

أنامُ بلا زادٍ

أشتاقُ رائحةَ الخبزِ

أحلمُ .. أعشق ..

أحقدُ..

.... والجوعُ كافرُ)

لذالك فإن لجوء الشاعر إلى الأسلوب الدرامي القائم على البوح، ثم المواجهة لبناء عالم يتسق مع الرؤى الحيّة منح النص فاعلية التأويل والتلقي، فعندما يصبح الوطن بلا دفء، تفقد الذات كينونتها، لتغادر اللغة مشروعية تراكيبها، وتنحو منحى فكريًّا، يصبح الموت بؤرته، وغاية وجوده، ممّا يقتضي تشكّل صور ذهنية تندرج ضمن الصورة المجسّدة، ذات الطبيعة الانفعالية، التي تشكّل مرجعية للمتلقي، يرمم من خلالها ذاكرته المتشظية في النص.

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 265 10/1/18 12:53 PM

4 ـ الإدانة للواقع:

إنّ استدعاء الشخصية التراثية في النص الشعري المعاصر يفجّر فيه من المشاعر والدلالات ما يكفي لإدانة الزمن المعاصر، فضلاً عمّا يكشفه حوار الشخصية التراثية من حالة الاغتراب المعاصرة وشعور بالاستلاب، وفقدان الذات لوجودها.

لقد وجد الشعراء في شخصية أبي ذر الغفاري منطلقاً لرفع صوت الاحتجاج على الظلم، وإدانة الواقع بانكساراته المستمرة، إذ نلمس في هذا البعد لاستدعاء شخصية أبي ذر الغفاري اتحاداً لصوتي الشاعر وأبي ذر الغفاري في صوت واحد، كما في قول هشام القواسمة (القواسمة، 2010، ص 71):

وما زلتُ رغم الزَّحامِ

ألملمُ من غربةِ النَّفسِ

أغنيةً لا تشيخ

وحيداً..

أسامرُ جوعي وعريي

أحاولُ أن أستقيمَ..

فلا أستطيعُ..

لعلّ لجوء الشاعر للقناع أظهر توحُّدا واضحاً بين الشخصيتين المعاصرة والتاريخية من خلال ضمير المتكلم(أنا) الذي أبرز تشابهاً بين التجربتين، ودفع بالنص نحو الدراميّة التي يلتحم فيها صوت الشاعر بالصوت التراثي؛ لتتحقق شعريّة البوح والرصد ذات اللغة المحمّلة بقيود الواقع، وجراحاته، إذ تُحيل الصور إلى العلاقة القائمة بين الذات والواقع وبين صوت الذات وآمالها المقموعة، وما صراخ الذات واستدعائها لأبي ذر الغفاري ـ بفكره الثوري ـ إلا ترجمة أمينة لحياة مغايرة للأحلام والتطلعات.

إنّ هذا التوحّد بين صوت السارد وصوت أبي ذر الغفاري نجم عن رغبة مشتركة في الحياة الكريمة يحملها الصوتان القديم والمعاصر حتى ظهرا وكأنهما صوت واحد في زمن دائم التشكّل، إذ يُسهم أسلوب التشخيص في تجديد الشكل الفني للنص الشعري، وتبني استراتيجية التمرد على الواقع القائمة على مواقف أيديولوجية مشابهة لتجربة الذات ومعاناتها المستمرة، كما في قول سعد الدين شاهين في قصيدته(أبو ذر يحزم أمتعته

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 266 10/1/18 12:53 PM

للرحيـل) باعثـاً حزنـه واغترابـه (شـاهين، 2010، ص 21 - 22):

أُدجِّنُ ما ينبغي من صفير المرارة والعوز

حتى يحلّ الحرام

يحلّ ولكن...

كما ينبغي

لاجتياز الكلام المسيّج بالرفض

أخطو وئيدا

أفتش عن قامتي

في نشيدٍ قليل التراب

فصـوت الشـاعر هـو صـوت أبـي ذر الغفـاري، وهـو بمثابـة نشـيد الألـم والحسـرة، والشـعور بالضيـاع، فمـا أن يبـدأ صـوت الشـاعر بالارتفـاع حتـى نجـده يتحـوّل إلـى صـوت أبـي ذر المضمـخ بالخـذلان المخـدوع بواقعـه.

لقـد أحـدث الشـعراء فـي نصوصهـم الشـعريّة انتمـاءً لعالـم منفلـت، هـو عالـم اللغـة باعتبارهـا صوتـاً وضميـراً للوجـود الإنسـاني، إذ يؤسسـوا لشـعريّة تأويليـة جديـدة، مسـتمدة كينونتهـا الفعليـة مـن كـون الشـعر أساسـاً مفتوحـاً علـى أبعـاد التشـابك الدلالـي، ومـن كونـه فتحـاً لعوالـم جديـدة، لـم يعهدهـا المتلقـي فـي نسـق تعبيـري مباشـر، فضـلاً عـن كونـه إبداعـاً لرؤيـا ناضجـة، تعبّـر عـن فهـم المبـدع لعالمـه الـذي يعيـش فيـه، حيـث نقـرأ فـي شـعر نـادر هـدى مزامير(بمثابـة البيانـات عمّـا قالـه أبـو ذرّ) (هـدى، 2010، ص204) :

راحلتي حيرى،

تتطوّف في بؤر الشحناءْ

راحلتي بئرُ الجرحِ

وحرُّ الجرحِ

سيفٌ في كلِّ الأرجاءِ

فالنـص يُحيـل إلـى الضيـاع والتخبـط الـذي يحيـاه الشـاعر ، وإلـى « دالٍ مسـكوت عنـه، ويمكـن

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 267 10/1/18 12:53 PM

استكشافه عن طريق قراءة أنظمة الخطاب، وقوانين تشكيله لمستوياته الصوتية، والتركيبية، والمورفولوجية، والمعجمية، والدلالية»(المناصرة، 2006، ص172).

لكن هذه الحالة من الألم والضياع يُضيئها عند الشعراء بريق أمل بالخلاص من الظلم، وإصلاح المجتمع، وتحرره من السلبيات، كما في قصيدة عبدالرحيم عمر(صلاة أبي ذر الغفاري) التي تختفي فيها شخصية أبي ذر الغفاري وراء ملفوظات تختزل أبعادها، حيث يقول (عمر، 1989، ص188):

الحقُّ في قلبي وفي قلبي الأملْ

أو ليس إن جاء الأجَلْ

خسئوا ولم يقوَوْا على دفع الأجل

وهُداك يا ربي أملْ

أملٌ يضيء عليَّ في الليل الطويل

أملٌ يضيء مسير قومي والسبيل

ويمدُّنا بالعزم جيلاً بعد جيلْ

وهو أمل مصدره إيمان راسخ بالله ـ سبحانه وتعالى ـ وقدرته على تحرير الأمة من أحزانها، إذ يعبّر الشاعر عن تجربة شعوريّة ناضجة بتوافق واضح بين الفكر والصياغة الفنية؛ ليقدم من خلالها صورة نفسيّة، تنبثق من عمق شعوره وإحساسه، وإخلاصه لوجدانه الملتهب، ومشاعره الإنسانيّة النبيلة.

خاتمة:

جاءت شخصية الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري واضحة في قصائد كثير من الشعراء الأردنيين، سعوا من خلالها إلى تحويل هذه الشخصية التراثية إلى رمز شعري عميق الجذور، يؤكد قوة حضور الذات الشعريّة ممتزجة بوجدان الجماعة ومعاناتها؛ لما تحمله من صرخة مشحونة بفكرة العدالة والمساواة، لذلك فقد وظّف الشعراء جزءاً من تجربة وإرث هذه الشخصية للعودة بها وإليها، والخوض في تفاصيلها وسيرتها والاستدلال بدلالتها الفكريّة.

لعلّ وقوع شخصية أبي ذر الغفاري ضمن المشترك المعرفي للمبدع والمتلقي على السواء أسهم في نجاح استدعاء الشعراء لهذا الرمز التراثي، بعدما اتّسق المدلول المستوحى

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 268 10/1/18 12:53 PM

ضمن دلالات النص الشعري ورسالته، وسمح بإبراز قوة تأثير الشخصية التراثية، وقدرتها على توجيه النص الشعري، والكشف عن رؤية الشاعر الفكريّة؛ إذ تجاوز الشعراء في توظيفهم لهذه الشخصية التراثية التصوير الفني إلى البناء الثوري الذي يمتاز بالعمق المضموني، واستثمار واضح لطاقات اللغة التعبيرية.

إنّ توظيف شخصية أبي ذر الغفاري في النص الشعري عكس هروباً من الواقع وارتداداً إلى إرث تاريخي خصب قادر على حمل أبعاد التجربة الشعريّة المعاصرة، ممّا فجّر في النص الشعري من المشاعر والدلالات ما يكفي لإدانة الزمن المعاصر، فضلاً عن أن حوار الشخصية التراثية يشي بحالة اغتراب معاصرة، وشعور بالاستلاب، وفقدان الذات لوجودها.

لقد قدّم الشعراء من خلال شخصية أبي ذر الغفاري بُعداً معرفيًّا يُثير التساؤل والتأمل، ويبعث الدهشة في النفس، ويدعو إلى التفكير في الواقع، ومحاولة الانفكاك من قيوده، فضلاً عن قدرتها على تصوير حالات النفس في تموجها بين المأساة والبطولة، وتخبطها بين الوهم واليقين.

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 269 10/1/18 12:53 PM

قائمة المصادر والمراجع:

إسماعيل، عزالدين .(1994م). الشعر العربي المعاصر(قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية)، ط5، القاهرة، المكتبة الأكاديمية.

بلخير، لطيفة. (2010). نجيب خداري في " يد لا تسمعني" مجلة نزوى، عُمان، العدد الثاني والستون، ص 287.

جدعان، فهمي.(1985م). نظرية التراث ودراسات عربية وإسلامية أخرى، ط1، عمّان، دار الشروق.

حداد، علي.(1986م). أثر التراث في الشعر العراقي الحديث، ط1، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة.

حنفي، حسن .(1981م). التراث والتجديد، ط1، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر، 1981م.

زايد، علي عشري.(1987م). استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، ط1، طرابلس، منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان.

شاهين، سعد الدين.(2010م). أرى ما رأته اليمامة، ط1، عمّان، دروب للنشر والتوزيع.

عبيد، محمد صابر.(2013م). التشكيل النصي، ط1، الرياض، كتاب الرياض.

عيد، رجاء.(2003م). لغة الشعر (قراءة في الشعر العربي المعاصر)، ط2، الإسكندرية، منشأة المعارف.

عمر، عبدالرحيم.(1989م).الأعمال الشعريّة الكاملة، ط1، عمّان، منشورات مكتبة عمّان.

قطبي، طلال.(2014م). الخطاب الشعري (تشكّلات الأنا والآخر في تجربة نادر هُدى الإبداعية)، ط1، عمّان، دار البيروني للنشر والتوزيع.

القواسمة، هشام.(2010م). قال شيئاً .. ومضى، ط1، عمّان، دروب للنشر والتوزيع.

القيسي، محمد.(1999م). الأعمال الشعريّة، ج1، ط2، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

الكركي ،خالد .(1989م). الرموز التراثية العربية في الشعر العربي الحديث، ط1، بيروت، دار الجيل.

محادين، خالد. (1990م). الأعمال الشعريّة، ط1، عمّان، مطابع المؤسسة الصحفية الأردنية " الرأي" .

مفتاح، محمد .(1986م). تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) ط2، المغرب، المركز الثقافي العربي.

المناصرة، عزّ الدّين.(2006م). علم التناص المقارن(نحو منهج عنكبوتي تفاعلي)، عمّان، دار مجدلاوي.

نهر، هادي.(2013م). المضامين الإنسانية والتشكيلات اللغويّة في شعر نادر هدى، ط1، إربد ، عالم الكتب الحديث .

هدى ،نادر.(2010م). ثلاثية حبر العتمة، مزامير الريح، عالم لست فيه، ..؟، ط1، عمّان، إصدارات الزرقاء مدينة الثقافة الأردنية.

هلال، عبدالناصر.(2009م). الشعر العربي المعاصر (انشطار الذات وفتنة الذاكرة)،ط1، القاهرة، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع.

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 270 10/1/18 12:53 PM

Evoking the Character of Abi Thar Al- Ghafari in Contemporary Jordanian Poetry: Descriptive-Analytical Study

Imad Abd-Elwahhab Dumour

Amman University College for Financial and Administrative Sciences - Balqa Applied University

Amman - Jordan

Abstract:

Arabic tradition is considered a fertile resource for the movement of contemporary Arabic poetry and one of its most important intellectual and artistic components that enable it to reveal and express contemporary issues, including the civilization crisis the poet witnesses. The evocation of the traditional character in modern Arabic poetry is perhaps one of the most important elements that contemporary poets try to use to help change reality by evoking the archetypal qualities and capabilities of the traditional character. Using an analytical methodology, this study seeks to examine the forms through which Jordanian poets recall the character of the glorious friend and companion (sahabi) of Prophet Mohammad (BPUH) Abi Thar Al- Ghafari, after they had found in it a successful artistic tool that can help reflect the bitter reality and the status quo of their nation that suffers humiliation and weakness. The integration of this traditional character appears to be important to provide poets' experience with a fertile human aspect that transcends the limits of time and place, in addition to the originality it imparts as a result of its connection with the nation's tradition. Recalling the character of Abi Thar Al- Ghafari in a creative contemporary text confirms that this character is and continues to be a living symbol incarnating contemporary social and political suffering and demonstrating an ability to coexist on the basis of justice, equality and rejection of injustice and tyranny.

Keywords: Abu Thar Al- Ghafari, Contemporary Jordanian poetry, Evoking.

□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□□□□□□ □□□□.indd 271 10/1/18 12:53 PM